الجزء الثاني المجلد السادس والثلاثون

مجلة المجمع العلمي العراقي

شوال ١٤٠٥ هـ
حزيران ١٩٨٥ م

حول طبيعة الحركة الشعوبية

محاولة لتوضيح التناقض بين الرؤية الشعوبية والرؤية العربية حول قضايا اجتماعية حسّاسة

الدكتور فاروق عمر فوزي

كلية الاداب – جامعة بغداد

مقدمة :

أشرنا في بحث سابق بأن الشعوبية حركة فكرية اجتماعيه عنصرية نظمتها فئات غير عربية بهدف ضرب الكيان العربي الاسلامي من خلال ثقافته وفكره وكل القيم التي يتضمنها تراثه الحضاري . وقد اتبعت اسلوب مهاجمة التراث والتشكيك بدور العرب التاريخي وفضلهم في الاسهام في الحضارة البشرية والاستهزاء بالمثل والعادات العربية قبل الاسلام وبعده مقابل الاعتزاز بالتراث الاعجمي – وخاصة الفارسي – والتمجيد بالقيم والثقافات والنظم الاعجمية(١) ولذلك ادعت الشعوبيه أن :

« للأمم كلها من الاعاجم ماوك تجمعها ومدائن تضمها واحكام تدين بها وفلسفة وبدائع من الادوات والصناعات. ولم يكن للعرب ملك يجمع سوادها ولاكان لها قط نتيجة في صناعة ولاائر في فلسفة»(٢) .

---

(١) راجع آفاق عربية العدد ٦ – سنة ١٩٧٧ ص ٨٨ فا بعد

(٢) راجع الجاحظ ثلاث رسائل ، ص ٤٤

وهكذا تبين بان الصراع بين الشعوبيون ومعارضيهم الذي بلغ اوجه في العصر العباسي كان صراعاً خطراً مسّ الجذور ولم يكن في جوهره كما يتوهم بعض الكتّاب والمؤرخين مسألة سطحية . ولذلك فإننا لانستطيع ان نتفق مع الباحث نوكوته حين يقول :

«..إن اهمية خاصة [فوق العادة] قد أُعطيت للحركة الشعوبية ان الباحث لايستطيع ان يتكلم عن حركة متبلورة ذات قيادات وخطط واهداف.فالحركة بنظرنا لم تكن اكثر من ميول شاعت بين غير العرب ارتبطت بتطلعات دينية هرطقية وثقافية »(٣) .

فقد يكون صحيحاً ان الشعوبية لم تكن حركة سياسية صرفة منظمة على هيئة احزاب المعارضة السياسية في القيادة الملاكات والقواعد الا انها مع ذلك كانت اخطر من الحزب السياسي المنظم في خططها وفي الاهداف التي ترمي اليها . لقد مسّت الحركة الشعوبية مظاهر وقيماً حساسة جداً في مجتمع العصور الوسطى الاسلامية .. وهذه القيم والمثل كانت اكثر حساسية واخطر مما يتوهم البعض من انها استهزأت بعادات العرب القدماء في المأكل والمشرب والزواج وما الى ذلك ! ! ، لانها كانت تستهدف الوجهة الحضارية والثقافية للمجتمع العربي الاسلامي برمته . وبمعنى آخر هل تكون وجهة المجتمع في ثقافته وتراثه اعجمية ام عربية أسلامية ؟ . وحين أسفرت الشعوبية عن وجهها الحقيقي تبيّن للقاصي والداني ان هدفها هو اعادة صياغة نظم المجتمع الادارية والسياسية والاجتماعية على نمط النظم الفارسية الساسانية التي تمثل عند الشعوبيين رأس الحكمة والنموذج الذي يحتذى به (٤) ! !

وعلى هذا فان الحركة الشعوبية مسّت مظاهر وقيماً مهمة في المجتمع ،

---

(٣) Leconte Ibe Qutaybe Dawasecus, 1951 P. X iii

(٤) الجاحظ ، ذم اخلاق الكتاب ، رسائل الجاحظ ، القاهرة ١٩٦٤ ص ١٩١ .

وهذا ما يبرر تلك الانفعالات الحادة وردود الفعل الجامحة بل الغاضبة احياناً بين القرنين الثاني والخامس للهجرة. فقد رد الكتاب المعارضون للشعوبية والموالون للفكر العربي الاسلامي وعلى رأسهم الجاحظ وابن قتيبة في رسائل وكتب عديدة معروفة على ادعاءات الشعوبية . كما كان لاراء ابن غرسيه الشعوبي في المغرب الاسلامي وخاصة في الاندلس ردود فعل عنيفة اخرى تمثلت على اقل تقـــدير بخمس اجابات بليغة وبلغة حادة قبل القرن السادس الهجري – الثاني عشر الميلادي – ولعل رد ابن الدودين البلسني الاندلسي يعتبر نموذجاً لهذه الردود حيث يتهم ابن غرسيه بالمروق عن الدين والجهل الاعمى . (٥) وان الرد المعقول على سفاهاته يكون بسلـــخ جلده عن جسده وصلبه على باب داره !! ومهما يكن من أمر – وبقدر مايتعلق الامر بموضوع بحثنا في هذه المقالة – إننا سنتطرق الى قضايا اجتماعية حساسة عالجها الشعوبيون ومعارضوهم ونوضّح موقف الفئتين من هذه القضايا . ولعلنا نشير هنا بان موقفهما كان متضاداً تماماً وان كلا الفئتين كانتا تحاولان جاهدتين ان تكسب المجتمع الى وجهة نظرها وان توجهه الوجهة التي تريدها .

حول العائلة :

علق المجتمع العربي الاسلامي اهمية كبيرة على العائلة كوحدة اجتماعية صغيرة . ورغم وجود وحـــدات اجتماعية بين العائلة التي هي اصغر وحدة اجتماعية ، وبين الأمة التي هي اكبر وحدة اجتماعية ، فقد بقيت العائلة ذات مكانة اجتماعية خاصة باعتبارها أهم وأخطر وحدة في بناء المجتمع وتوجيهه الوجهة الصحيحة . وكان تأكيد الاسلام في تشريعاته على العائلة واضحاً جلياً كان له اثره في الابقاء على تماسك العائلة عبر العصور والى وقتنا هذا في الوقت الذي انهارت فيه هذه الوحدة الصغيرة والمهمة في مجتمعات اخرى .

---

(٥) راجع : احسان عباس ، تاريخ الادب الاندلسي ، بيروت ١٩٧٤ ص ١٧١ . كذلك
J. S. Monrcc, The Sh Ubiyya in al - Andalus, 1970, P. 69.

إن هذا العرف الاجتماعي العربي قبل الاسلام وبعده في اعطاء مكانة مهمة للعائلة ومايتصل بها من قيم اجتماعية وخاصة رابطة الزواج وأصول النكاح كان على نقيض العرف المجوسي المعروف فالزرادشتية – وهي الديانة الرسمية للفرس الساسانيين – كانت تشجع الزواج بالمحارم وتعترف بزواج المرء من امه او اخته او ابنتـــه !! واالخرميّةَ كانت تبشّر بمشاعية النساء « لانهن اصل البلاء وسبب الاقتتال بين البشر » اما المانوية فلم تشجع الزواج أصلاً وبشرت بالرهبانية والزهد في الحياة الدنيا الشريرة والى التعجيل في انقراض الجنس البشري للتخلص من الشر (٦) !! .

لم تنتشر هذه المذاهب المجوسية بين العرب قبل الاسلام وفضّلوا عليها الوثنية ، كما انها كانت على طرفي نقيض مع الاسلام الذي حرّم زواج المحارم وحرّم مشاعيّة المرأة ورفع من مستواها في العائلة والمجتمع وانكر الزهد والرهبنة في الحياة الدنيا . قال تعالى :

« حُرّمت عليكم امهاتكم وبناتكم واخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الاخ وبنات الاخت وامهاتكم اللاتي ارضعنكم واخواتكم من الرضاعة وامهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلاجناح عليكم وحلائل ابنائكم الذين من اصلابكم وأن تجمعوا بين الاختين الا ما قد سلف ان الله كان غفوراً رحيماً » (٧) .

« ولاتنكحوا مانكح اباؤكم من النساء الا ماقد سلف انه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً » (٨) .

---

(٦) حول المذاهب المجوسية راجع كرمستين ، ايران في عهد الساسانيين ص ١٣٠ فا بعد ص ١٦٩ فا بعد ص ٣٠٢ فا بعد

(٧) القرآن الكريم ، سورة النساء .

(٨) المصدر السابق

فإذا علمنا ان هؤلاء الكتّاب الفرس الشعوبيين كانوا على المجوسية قبل دخولهم الاسلام وان تراث المجوسية بقى يعمل عمله في نفوسهم وعقولهم، ادركنا الدافع الذي دفعهم الى مهاجمة قيم العروبة والاسلام الاجتماعية التي كانت على طرفي نقيض مع قيمهم المجوسية بمذاهبها الثلاثة حول الاهتمام بالأصل :

المعروف تاريخياً ان المجتمع العربي مجتمع حساس مرهف الحساسية فيما يتعلق بالأصل والنسب . وان العرب لم يهتموا فقط بأنسابهم بل حققوا ودققوا في انساب خيولهم !! فكان على المرء ان يعرف نسبه جيداً لكي يتبين موقعه بالنسبة للآخرين من حيث رابطة القرابة والبعد وما يتبعها من علاقات اجتماعية وحقوق وواجبات .

وحين جاء الاسلام بنظرته الانسانية الشمولية مبشراً بان الناس من آدم وآدم من تراب فإن حالة المساواة هذه لاتعني بأي شكل من الاشكال إلغاء الاصل أو وجوب معرفة المرء لنسبه . بل ان الاسلام اعتبر الادعاء بنسب كاذب جريمة اجتماعية ، كما انكر عادة التبني لخطورتها على موقع الفرد وارتباطاته الاجتماعية . قال تعالى « ادعوهم لآبائهم ذلك اقرب للتقوى » وذهب الفقهاء والعلماء الى ان تجاهل الأصل او النسب سوف يعيق تطبيق تعاليم الشريعة في تقسيم التركة والميراث والوصية وتجنب الزواج من المحارم وما الى ذلك . واكثر من ذلك فان تجاهل النسب سيؤثر سلبياً على الحياة العلمية لأن ذلك سيعيق عملية التحقق من السند (سلسلة الرواة) في روايات التاريخ والحديث والفقه والتشريع ومدى الثقة في رواة هذه الاحاديث . (٩) فالاسلام إذن اكدّ على معرفة النسب ولكنه انكر استغلال النسب كوسيلة للوصول الى هدف معين

(٩) راجع مثلا: ابن كثير ، تفسير القرآن ، ج ٦ ، ص ٣٨٧ فا بعد طبعة بيروت ١٩٦٦.

كما انكر اشد الانكار اعتبار النسب مدعاة للتفاخر والتعالي والتبجح . ولهذا نلاحظ بان التنظيمات الاجتماعيـــة والادارية والعسكرية في الدولة الاســـلامية اخذت النسب بنظر الاعتبار فكانت قوائم العطاء في الامصار تنظم حسب القبائل (النسب) وكان تخطيط الامصار الاسلامية الاولى الى ارباع واخماس على اساس القبائل (النسب) وكان تنظيم الجند في صدر الاسلام ينحو نفس المنحى . ان هذه النظرة الى الأصل والنسب كانت معروفة لدى العرب قبل الاسلام كذلك . فالنسب رغم اهميته ، لايعتبر وسيلة للرئاسة او المنزلة المرموقة او مدعاةً للفخر . يقول عامر بن الطفيل : (١٠) .

واني وان كنتُ ابن فارس عامر ... وفي السر منها والصريح المهـــذب
فما سودتني عامر عن وراثة ... ابى الله ان أســـمو بأم ولاأب
ولكنني احمي حماهـــا واتقي ... اذاها وارمي من رماهـا بمقنب

فابن الطفيل يصرّح هنا بانه لم يصبح سيد بني عامر بسبب نسبه الرفيع في بني عامر ولكن بسبب اقتداره على تحمل المسؤوليات الجسام تجاه ابناء قبيلتـه .

لم ينظر الفرس الى النسب (الأصل) بنفس منظار العرب اليه بل ان الفرس — كما سنرى بعد قليل — كانوا ينسبون الى قراهم او مدنهم او اقاليمهم لاالى انسابهم . والواقع فإن المجتمع الذي تبشر مذاهبه بمشاعية النساء وبالزواج من المحارم وبظواهر تؤدي الى الفوضوية في النظام العائلي والاجتماعي العـــام لايمكن بشكل من الاشكال ان يعير اهمية كبيرة الى أصل الفرد أو نسبه او حسبه .

حول مصطلح الشعوب :

ان هذه النظرة العربية الاسلامية الى اصل المرء ونسبه جرّت الى مشادّة

(١٠) فاروق عمر ، النظم الاسلامية ، الشارقة ، ١٩٨٣ ، ص ١١

عنيفة بين الكتّاب الموالين للفكر الشعوبي والكتّاب الموالين للفكر العربي الاسلامي. فهل يكون ارتباط الفرد بأصله ونسبه ام يكون ارتباطه بمدينته او إقليمه .

ولابد ان نشير الى ملاحظة مهمة وهي ان هؤلاء الكتّاب من الفئتين الشعوبية والمعادية للفكر الشعوبي كانوا في غالبيتهم المطلقة من الفرس . فالصراع كان بين الفرس انفسهم . فئة موالية للفكر العربي الاسلامي واخرى موالية للفكر الشعوبي العنصري . فمن الفئة الشعوبية ابان اللاحقي وسهل بن هارون وابي يعقوب بن حسّان بن موَهي الصفدي وعلان الشعوبي واسحق ابن سلمة الفارسي وسعيد بن حميد بن النجتكان الفارسي ومحمد بن علي الاصفهاني الفارسي ومهيار الديلمي ومجموعة كبيرة من كتّاب الدواوين العباسيّة من الموالي الفرس . اما الفئة الموالية للعروبة والاسلام فعلى رأسهم الجاحظ وابن قتيبة والتوحيدي والثعالبي والجهمي (ابو عبدالله احمد بن محمد العدوي) والكندي (ابو يوسف يعقوب بن اسحق) والبيروني وابن حزم وغيرهم . وكما يلاحظ ان غالبية هذه الفئة كانت من الفرس ايضاً !!

لقد انتقلت هذه المشادة بين الشعوبيين ومعارضيهم من الادباء والمفكرين والمؤرخين والكتّاب الى المفسرين والفقهاء كذلك . فالمعروف تاريخياً ان الشعوبيين تستروا في البداية تحت شعارات اسلامية تنادي بالمساواة بين البشر ودعوا انفسهم « باهل التسوية » ومن جملة ما تشبثوا به الآية القرآنية الكريمة :

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن اكرمكم عند الله أتقاكم » (١١)

فمن هم الشعوب ؟ ومن هم القبائل ؟ . اكّدت وجهة النظر العربية الاسلامية المضادة للشعوبية . وخير من يمثلها الطبري في تفسيره الشهير للقرآن الكريم(١٢)

(١١) القرآن الكريم ، سورة الحجرات .
(١٢) الطبري ، جامع البيان في تأويل القرآن ، القاهرة ١٩٥٤ ، ج ٢٦ ص ١٣٨ فا بعد =

في تفسيرها للشعب بكونه وحدة نسب اكبر من القبيلة والشعب اكبر من القبيلة من حيث العدد . فهو بهذا المعنى قبيلة كبيرة او اتحاد كونفدرالي قبلي – اذا جاز لنا استعمال هذا الاصطلاح – ويعزز الطبري رأيه المستند على اسس لغوية قوية مشيراً الى عدد من الاحاديث النبوية والروايات التاريخية التي تدعم هذا التفسير .

وقد تبنى تفسير الطبري هذا العديد من المفسرين المعادين للشعوبية فأكدوا ان « الشعب » وحدة اجتماعية ضمن اطار النسب اكبر من القبيلة (١٣) . فاليمانية والقيسية والربعية وهي الشعب الرئيسية التي انحدر منها العرب هي هي شعوب اما تميم او بكر او شيبان او الازد فهي قبائل التي تنقسم بدورها الى افخاذ وبطون وهكذا . ولعلنا نقتبس في هذا المجال قول الطبري ممثل هذه المدرسة المعادية للشعوبية رغم كونه فارسياً في الاصل ولكنه عربي مسلم في الفكر والولاء والثقافة . يقول الطبري (١٤) :

« وقوله (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) يقول : وجعلناكم متناسبين فبعضكم يناسب بعضاً نسباً بعيداً وبعضكم يناسب بعضاً نسباً قريباً فالمناسب البعيد من لم ينسبه اهل الشعوب وذلك اذا قيل للرجل من العرب : من اي شعب انت ؟ قال : انا من مضر او من ربيعة ، واما اهل المناسبة القريبة اهل القبائل وهم كتميم من مضر وبكر من ربيعة ، واقرب القبائل الافخاذ وهما كشيبان من بكر ودارم من تميم ونحو ذلك ، ومن الشعب قول ابن احمر الباهلي :

= كذلك الزمخشري ، الكشاف ، بيروت ١٣٦٦ هـ ، ج ٣٧٤ فا بعد، من الطبيعي ان يكون الزمخشري ، وهو من اشد المعادين للشعوبية ، من مدرسة الطبري في التفسير .

(١٣) R. P. Mottadeh, The Shu'uhiyah ... Int. J.M.E.S., 1976 P. 166 M. Guidi, الشعوبية بين مسلمي الاندلس ZDMG, 63, 1889 .

(١٤) الطبري ، المصدر السابق ج ٢٦ ص ١٣٨ فا بعد

مِن شعب همدان او سعد العشيرة أو خولان او مذحج هاجوا لهطربا »

واذا كان الطبري اكد على النسب والأصل في تفسيره لمصطلح الشعوب فإن الكتاب الشعوبيين فسّروا معنى الشعوب تفسيراً آخر استند على الاقليم والمدينة والقرية . فالشعوب هم الذين لا يرجعون بأصولهم الى جد اعلى او نسب واحد يعرفونه وانما ينتسبون الى المدائن والقرى والاقاليم فهذا خراساني وذاك كرماني وآخر جرجاني او مروزي (نسبة الى مدينة مروالروز) او دينوري او قُمّي . وخرجوا من ذلك الى ان الشعوب هي العجم (غير العـــرب) والقبائل هي العرب . والشعوب تنتسب الى المدائن والاقاليم والقبائل تنتسب الى الآباء والاجداد (١٥) . وهكذا فالشعوب مصطلح اطلق على (جيل العجم) (١٦) وهو مفهوم اقليمي ارتبط بالنظرة الشعوبية في تنظيم المجتمع .

ولم يقف الشعوبيون عند هذا الحد بل فضحوا نظرتهم العنصرية تجاه العرب فقالوا بأن الشعوب افضل من القبائل لأن الله تعالى قدّم مصطلح الشعوب على مصطلح القبائل في الآية القرآنية آنفة الذكر . ويعترف الطبرسي (١٧) وهو خراساني (ت سنة ٥٤٨ هـ) بان الشعوبية تحتقر العرب وتقلل من دورهم واهميتهم ولا ترى لهم ايّ فضل .

والواقع فإن هذه النظرة الفارسية في تنظيم المجتمع وفق اسس اقليمية بدأت تؤثر على العرب المسلمين الذين استقروا في بلاد فارس بعد الفتح الاسلامي واخذنا نلاحظ في اواخر العصر الاموي العديد من الرجال العرب مما اتخذوا القاباً فارسية نسبة الى الاقاليم او المدائن اضافة الى القابهم القبلية مثل جديع بن علي الكرماني الازدي والفضل بن سليمان الطوسي التميمي

(١٥) راجع تفسيري قرآني مجيد للمؤلف المجهول :(باللغة الفارسية) ج ٢ ص ٢٥٦ طهران ١٣٤٩/١٩٧٠ . كذلك متحدي ، المصدر السابق ، ص ١٦٧ – ١٧٠

(١٦) راجع ابن منظور ، لسان العرب ، ج ٢ ص ٣٢٠ فما بعد

(١٧) الطبرسي ، مجمع البيان ، ج ١٦ ص ٩١ بيروت ١٩٥٥

وهكذا . بل ان اول سجل اشيعة بني العباس (اي انصار الدعوة العباسية) في خراسان نظمه ابو مسلم الخراساني على اساس القرى والمدن التي جاء منها هؤلاء الانصار لا على اساس القبيلة او النسب رغم ان عصب الدعوة العباسية في تلك الفترة المبكرة كان يتكون من العرب المستقرين في خراسان(١٨) ! !

وقد تبلورت هذه النظرة الاقليمية اكثر فاكثر خلال العصر العباسي حيث يؤكدها بشّار بن برد المتهم بشعوبيته في حديث له مع الخليفة العباسي المهدي ، تتمول الرواية عن بشار (١٩) :

« قال : لما دخلتُ على المهدي قال لي : فيمن تعتد يا بشار ؟ فقلت :

اما اللسان والزي فعربيان واما الأصل فعجمي كما قلت في شعري يا أمير المؤمنين :

الا ايها السائلي جاهداً ... ليعرفني انا انف الكرم

نمت في الكرام بني عامر ... فروعي وأصلي قريش العجم

.... ثم قال المهدي : فمن أي العجم اصلك ؟ فقلت من اكثرها في الفرسان واشدها على الاقران اهل طخارستان . فقال بعض القوم : اولئك الصغد فقلت لا الصغد تجار .. وكان بشار كثير التلون في ولائه شديد الشغب والتعصب للعجم » .

وبشار هنا في بغداد في بيئة عربية وفي حضرة خليفة عربي وبلاط عربي وثقافة عربية اسلامية يدرك مدى تعلق العرب بأصولهم وانسابهم ولهذا افتخر بنسبه الفارسي مدعياً انه من احسن الانساب « قريش العجم » كما افتخر بولائه

---

(١٨) فاروق عمر ، طبعة الدعوة العباسية ، بيروت ١٩٧٠

(١٩) الاصفهاني ، الاغاني ، ج ٣ طبعة القاهرة ، ص ١٣٨ . — على ان بعض الشعوبية في معارضتهم للشعب العربي ادعوا الانتساب الى سارة زوجة ابراهيم الحرة وليس الى هاجر الزوجة الأمة وام اسماعيل .

من بني عامر العرب ولكن فخره هذا بأصله لم يطغ وهنا بيت القصيد حيث التأكيد على وجهة النظر الفارسية – على فخره واعتزازه باقليمه طخارستان . وبهذا اظهر بشار تأييده للشعوبية ولذلك تتهمه الرواية بانه شديد التعصب للعجم.

ولابد ان نشير هنا – عرضاً – الى ملاحظة هامة وردت في نفس الرواية وهي وضوح الفروقات المحلية والاقليمية بين الايرانيين انفسهم واستمراريتها . فبشار بن برد يتكلم بنبرة من الاحتقار عن اهل الصغد بينما يفتخر بأهل طخارستان . وفي روايات تاريخية ان سكان الاقاليم الجنوبية من ايران نظروا الى الديلم الذين حكموا ايران في الفترة البويهية (في القرن الرابع وجزء من القرن الخامس الهجري) نظرة مهانة وازدراء معتبرين اياهم غير متحضرين وغرباء (٢٠) .

ولعل الشاهنامة (٢١) التي كتبها الفردوسي حوالي سنة ٤٠٠ هـ – ١٠١٠م تعتبر خير نموذج لوجهة النظر الفارسية في الاستناد على المعيار الاقليمي في تعريف الشعوب ، فالفردوسي يعتبر الاقوام التي سكنت الارض الايرانية واعتبرت – فرضياً – نفسها منحدرة من اصل مشترك اقواماً ايرانية . ولهذا نلاحظه يكرر عبارات (ايران زمين) (وشهر ايران) للدلالة على الرقعة الايرانية . على ان الفردوسي لا يستعمل هذا المقياس في التمييز بين الايرانيين وغيرهم من الاقوام مثل الطورانيين بل يعتبر الأصل والنسب اساسا في التمييز .

وهكذا حاولت الشعوبية من خلال تفسيرها هذا لاصطلاح الشعوب ان تعزل العرب عن سائر الاقوام الاخرى التي تضمها الدولة العربية الاسلامية . ثم تجعل منهم هدفاً للهجوم مقللة من دورهم التاريخي والحضاري مستهزئة

(٢٠) متحدي المصدر السابق ، بالانكليزية ، ص ١٧٣

(٢١) الشاهنامة ملحمة شعرية تقع في اكثر من ستين ألف بيت ترجمها نثراً الفتح بن علي البنداري الى اللغة العربية ونشرها عبد الوهاب عزام بالقاهرة سنة ١٩٣٢

بقيمهم وتراثهم . ألم تدّع الشعوبية أن الله فضّل الشعوب (العجم) على القبائل (العرب) لانه قدّم ذكرهم في الآية القرآنية آنفة الذكر !! . ثم ألم تدّع الشعوبية ان للامم كلها من الاعاجم مُلْكاً ومدناً وحضارات وصناعات وليس للعرب من ذلك شيء قط !! . فأين شعارات المساواة واصطلاح « اهل التسوية » الذي تستر وراءه الفرس الشعوبيون من هذه النظرة العنصرية الشعوبية الى العرب ؟ ثم أليس في ذلك كله ما يبرر الاقرار بان الشعوبية لم تكن الا موقفاً واحداً من سلسلة المواقف العدائية الفارسية تجاه الامة العربية عبر التاريخ. لقد حاول الشعوبيون ان يطعنوا « الامة » في الصميم عن طريق تفتيت الرابطة العربية وجعلها رابطة تنتسب للقرى والمدن والاقاليم .

حول الطبقية في المجتمع :

واذا ما انتقلنا الى مظهر اجتماعي آخر وهو محاولة الشعوبية ادخال النظام الاجتماعي الطبقي الحاد الذي كان سائداً في بلاد فارس في العصر الساساني بكل مراتبه وقيمه وتقاليده باعتباره نظاماً بديلاً للنظام السائد في المجتمع العربي الاسلامي في العصر العباسي . والمعروف — وكما تؤكد ذلك شاهنامة الفردوسي ايضاً — ان المجتمع الفارسي في العصر الساساني وقبله كان ينقسم الى عدد من الطبقات الاجتماعية هي طبقة الملك والامراء والنبلاء ثم طبقة رجال الدين الزرادشت ثم طبقة المحاربين ثم طبقة اصحاب الحرف والعمال الزراعيين والتجار الصغار والعامة من الناس . وقد اشار المؤرخون الى ان الطبقية كانت حادة جداً وكان يحظر على فرد من طبقة ما ان ينتقل الى طبقة اخرى . وكانت الارستقراطية الايرانية تساعدها طبقة الكتّاب تحكم البلاد باسم الملك وتتمتع ، مع الطبقات العليا الاخرى ، بامتيازات كثيرة على حساب الزراع والعمال والحرفيين والعامة .

وحين نشر العرب المسلمون الاسلام في ايران تعززت النظرة بان الجميع

من آدم وآدم من تراب وبمعنى آخر نزعة المساواة . رغم ان حالة المساواة هذه — كما اشرنا سابقاً — لا تلغي التمييز فلكل قوم تقاليدهم كما لا تلغي معرفة الأصل والنسب . ولكنها تلغي الفخر والتبجح بالاصول وتلغي الطبقية الحادة التي كانت سائدة .

لقد رفضت الارستقراطية الفارسية تساندها طبقة الكتاب كل القيم والمثل العربية الاسلامية ومنها بطبيعة الحال القيم الاجتماعية . ذلك لأن الارستقراطية الفارسية ومعها كتاب الدواوين الفرس فقدوا بعض مراكزهم ومراتبهم في الدولة العربية الاسلامية الجديدة ، وحين بدأوا تدريجياً يسترجعون مكانتهم في اواخر العصر الاموي وبداية العصر العباسي حيث انيطت لهم مسؤوليات ادارية ومالية عديدة حاولوا جاهدين وبشتى الطرق اعادة الاعتبار لأنفسهم واسترجاع مواقعهم القديمة التي احتلوها في الماضي ايام الساسانيين . وبدأوا ينشرون بين الناس العديد من الرسائل والكتب والاطروحات في تجميد ماضي الفرس والاشادة بادارتهم ونظمهم من اجل ان يجعلوا من الماضي الفارسي تراثاً موازياً او افضل من الماضي العربي . كما نشروا رسائل وروايات تحتقر نظم العرب وتقاليدهم وعاداتهم وتستهزئ بها .

ولعلنا نعود هنا فنشير الى بشار بن برد كنموذج لهذه الظاهرة فهو يفتخر بنسبه من العجم ويدّعي بان ارتباطه بالعرب برباط (الولاء) باعتباره مولى لبني عامر قد شرّف العرب . وبمعنى اخر فإن العرب قد تشرفوا بارتباط بشار بهم لان بشاراً كما يزعم من « قريش العجم » أي من احسن نسب في العجم !! . يقول بشار (٢٢) .

أصبحت مولى ذي الجلال وبعضهم مولى العريب فخذ بفضلك فافخر

(٢٢) الاغاني ، ج ص ١٣٩

مولاك اكـــرم من تميم كلهـــا اهل الفعال ومن قريش المشعر
فارجع الى مولاك غير مـــدافع سبحان مولاك الأجـــل الاكبر

لقد تطورت هذه المشادة بين الشعوبيين ومعارضيهم فانتجت ادباً غنياً حول التراث والتاريخ والعادات والتقاليد وسير الاجداد الحسنة والقبيحة . ولاشك فإن النصر كان الى جانب الفئة الموالية للعروبة لكثرة مالديهم من أدلة وأمثلة على خلاف الفئة الشعوبية التي كانت كثيراً ما تلجأ الى الاساطير والخيال حين تعوزها الادلة والامثلة التاريخية، والسبب واضح ومعروف وهو ان حضارة العرب قبل الاسلام وبعده اغنى وازخر من حضارة الفرس القديمة.

وهكذا فحين تسترت الارستقراطية الفارسية يساندها الكتّاب الفرس تحت برقع « التسوية » محاولة جعل الماضي الفارسي موازياً على اقل تقدير للماضي العربي ان لم يكن افضل منه ، لم يكن ذلك من اجل منفعة عامة تهدف الى نشر مبدأ المساواة في المجتمع بل من اجل منفعة ذاتية وانانية وهي قلب النظام الاجتماعي الاســـلامي الجديد واعادة بنائه على اسس النظـــام الاجتماعي الطبقي الساساني ، ثم التقدم بعد ذلك لتثبيت موقعهم الخاص والرفيع في المجتمع الجديد ، كما كان الوضع في المجتمع الساساني . وهكذا سقط برقع التسوية وكل الشعارات المرتبطة به وانكشفت الشعوبية الشوفينية على حقيقتها .

إن النظرة الفارسية الساسانية الى المجتمع هي نظرة الى مجتمـــع ذي مراتب طبقية حادة (٢٣) يكون فيه لكل طبقة وبالتالي لكل فرد في هذه الطبقة مرتبة في سلم التدرج حيث تبدأ من الوضيع وتتدرج الى الرفيع النبيل . وقد استمرت هذه النظرة الطبقية عند الفرس بعد الاسلام ولم تتغير ولهذا

(٢٣) كريستنسن ، المصدر السابق ، ص ٣٠٢ فا بعد (٢٤)

نلاحظ الروايات الفارسية حين تمتدح عضد الدولة البويهي الفارسي وتعتبره من اعظم حكام بلاد فارس لا لانجازات مهمة نفذها ولكن لأنه « لم يعط احداً من اتباعه منزلة او مرتبة اكثر مما يستحق » (٢٤) . كما ونلاحظ ان المغامرين من حكام الدويلات الفارسية التي استقلت عن الخلافة العباسية في عصورها المتأخرة كانوا بعد استبلائهم غصباً على السلطة يدّعون أنساباً تتصل بملوك الفرس القدماء ، ذلك لانهم يدركون ان بادعائهم هذا سيكسبون طاعة الفرس الذين تتحكم فيهم النظرة الطبقية . ولنا في الامراء الصغاريين (٢٥) والسامانيين امثلة على ذلك .

ولسنا بعد ذلك كله في حاجة الى القول بأن هذه الافكار الشعوبية التي بشرّت بنظام اجتماعي لا يدين بالمساواة ويؤمن بالطبقية الاجتماعية من اجل مصلحة انانية خاصة لا منفعة اجتماعية عامة كانت على طرفي نقيض مع الفكر العربي الاسلامي . ومن هنا جاء هجوم الجاحظ العنيف على الكتّاب الفرس ودورهم الخطر في الحركة الشعوبية ، يقول الجاحظ :

« ثم هو [اي الكاتب] في الذروة القصوى من الصَّلَف والسنام الاعلى من البذخ وفي البحر الطامي من التيه والسرف يتوهم الواحد منهم اذا عرّض جبته وطوّل ذيله ... انه المتبوع لا التابع والمليك فوق المالك .

ثم الناشئ منهم إذا وطئ مقعد الرياسة وتورّك مشورة الخلافة.. وصارت الدواة امامه .. وروى لبزرجمهر امثاله ولأردشير عهده ... وصيّر كتاب مزدك معدن علمه ودفتر كليلة ودمنة كنز حكمته ظنّ انه الفاروق الاكبر في

---

(٢٤) ابو شجاع الروذراوري ، ذيل تجارب الامم ، القاهرة ١٣٣٤ ، ص ٧٤

(٢٥) قال الشاعر ابراهيم بن ممشاد الشعوبي في بلاط يعقوب الصفار في سجستان قصيدة على لسان الصفار :

أنا إبن الاكارم من نسل جم وحائز إرث ملوك العجم

وجم هو جمشيد احد ملوك الفيشدارية العجم حيث تشير اليه شاهنامة الفردوسي .

التدبير .. فيكون اول بدوه الطعن على القرآن في تأليفه والقضاء عليه بتناقضه ثم يُظهر ظرفه بتكذيب الاخبار وتهجين من نقل الاثار .. فإن استرجع احد عنده اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فُتل عند ذكرهم شدقه ولوى عند محاسنهم كشحه ... ثم يقطع ذلك من مجلسه سياسة أردشير وتدبير أنوشروان واستقامة البلاد لآل ساسان » (٢٦) .

الخاتمـة :

الشعوبية حركة فكرية اجتماعية تمثلت ، في الغالب ، على شكل صراع حاد بين فئتين من الفرس فئة موالية للفكر العربي الاسلامي مؤمنة بالاسلام ومخلصة للخلافة وفئة موالية للفكر المجوسي تتوّاقة لاعادة بناء المجتمع والدولة على نمط التراث والنظم الساسانية . ولعل خير مَن وصف هذه الفئة الثانية الصاحب بن عباد وهو فارسي ايضاً حيث قال :

« لا ارى احد يُفَضّل العجم الا وفيه عرق من المجوسية ينزع اليه »(٢٧) .

وقد عالجت الشعوبية — بقدر ما يتعلق الأمر بموضوع بحثنا — مسائل اجتماعية حسّاسة تتعلق بالعائلة وقيمها والأصل (النسب) ومعنى الشعوب والمعيار الذي تستند اليه الشعوب في التعريف بذاتها ونظام المجتمـــع ومفهوم الطبقية الاجتماعية . وهذه — دون شك — مظاهر مهمة على عكس ما يتوهم بعض المؤرخين لأنها كانت تحاول اقرار الوجهة الاجتماعية والثقافية التي يتخذها المجتمع هل ستكون مجوسية ساسانية معدّلة ام عربية اسلامية ؟؟ ! !

وكان من نتيجة هذا الصراع ان انتصر الفكر العربي الاسلامي على الفكر الشعوبي ولهذا ما لبثت الشعوبية أن اختفت او خفتت بعد القرن السادس

---

(٢٦) راجع الجاحظ ، ذم اختلاف الكتاب في رسائل الجاحظ ، ص ١٩١

(٢٧) بل ان الصاحب بن عباد يثاقب بصيرته وعمق ادراكه يشخص الهجمة الشعوبية ويروى بأنها تحاول النيل من الثقافة العربية والنسب العربي والدين والاسلام . راجع : الصراع العراقي — الفارسي ، بغداد ١٩٨٣ ، الفصل الرابع ، ص ١٨٢

الهجري – الثاني عشر الميلادي ، ولعل من جملة الاسباب التي ادت الى فشل الحركة الشعوبية في الوصول الى غاياتها هو غنى التراث العربي الاسلامي الزاخر بالشواهد والادلة التي تدحض دعاوى الشعوبية وتردها دون كثير عناء او محاولة الى ابتداع . بينما كان الشعوبيون يؤلّفون الرسائل والكتب وينسبونها الى الفرس لاظهار طول باعهم في النظم والثقافات . وقد كشف الجاحظ في كتاباته زيف ذلك وشكك في هذه التواليف وصحة نسبتها الى قدماء الفرس .

ولعل ثاني هذه الاسباب هو النزعة الانسانية المرنة للمفكرين الموالين للعروبة والاسلام فرغم تصديهم لمفتريات الشعوبية بروح عالمية منطقية لا تعوزها الادلة والبراهين فانهم مع ذلك تحلّوا بالمرونة والانسانية – على عكس الشعوبيين – فتقدموا الى منتصف الطريق لملاقاة الخصم ودعوا الى موقف توفيقي فادخلوا قسماً من ادبيات الفرس ومثلهم المقبولة والتي لا تتعارض مع قيم العروبة وتعاليم الاسلام ضمن الادب العربي – الاسلامي كما يلاحظ ذلك في كتب ورسائل ابن قتيبة والجاحظ والتوحيدي حتى الغزالي في كتابه (نصيحة الملوك) ادخل العديد من القصص الساسانية ذات المغزى الاخلاقي . على ان غالبية ما تبقى من ثقافة الفرس كان اجنبياً غريباً على الثقافة العربية الاسلامية بسبب ارتباطه بقيم مجوسية اوغيرها بعيدة عن قيم العروبة والاسلام وبهذا خسر الشعوبيون معركتهم في تبنّي المجتمع الاسلامي لقيم الثقافة الفارسية القديمة.

ومن مظاهر النظرة التوفيقية ظهور الفكرة القائلة بان العروبة هي اللسان فمن تكلم بالعربية فهو عربي . وقد نُسبت الفكرة الى الرسول (ص) في خطبته يوم فتح مكة حيث انكر الفخر بالنسب والأصل واعتبره جاهلية واكد بان العربية ليست بالاب او بالام وانما هي لسان الناطقين بها ، فمن تكلم بها فهو عربي (٢٨) . وقد تقبل العديد من غير العرب (ومنهم الفرس)

(٢٨) القمي (منتصف القرن الرابع الهجري) ، تفسير ، ج٢ ص ٣٢٢ النجف ١٣٨٧ / ١٩٦٧ . – بل ان عضد الدولة البويهي حاول ان ينتحل نسباً عربياً ! !

هذه الدعوة للانضمام الى المجتمع العربي الاسلامي على اساس اللسان او اللغة . وتبناها العديد من الكتاب والعلماء الفرس في العصر العباسي .

وتتمثل النظرة الانسانية المرنة للعروبة في دعوة ابن قتيبة الى الامتزاج بين العرب والعجم من خلال دعوته للاشراف الفرس الذين كانوا يكوّنون الطبقة الحاكمة الفارسية في العصر الساساني للاختلاط والامتزاج مع العرب . وقد اتبع ابن قتيبة عدة اساليب لتشجيع اشراف الفرس لنبذ الشعوبية والاختلاط بالعرب منها تبرئتهم من الافكار العنصرية الشعوبية وحصر الشعوبية بالرعاع والسفلة من ابناء فارس ومنها اشارته الى اصولهم [اي اصول اشراف الفرس] النبيلة وانسابهم الرفيعة التي لا تقل عن انساب العرب ، كما اعترف ابن قتيبة بحقهم ان يفخروا بملك آل ساسان وسياساتهم .

قال ابن قتيبة :

« ثم تتساوى العرب وفارس في ان الفريقين ملكوا . وتفضلها العرب بان قواعد ملكها نبوة وقواعد ملك فارس استلاب وغلبة » وهو بهذا اعاد الى هؤلاء الاشراف اعتبارهم واحترم مكانتهم التي كانوا يشغلونها في ذلك العصر . واكثر من هذا وذاك فإن ابن قتيبة يعطي لهؤلاء الفرس نموذجاً من شخصيته ومكانته في المجتمع الاسلامي الجديد ويدعوهم الى ان يسيروا على نهجه فيحظوا بالاحترام والمنزلة . فابن قتيبة فارسي الأصل ولكنه لا يشارك الشعوبيين مواقفهم العدائية ضد كل ما هو عربي واسلامي . يقول ابن قتيبة :

« فلا يمنعني نسبي في العجم ان ادفعها عما تدعيه بها جهلتهاواثني اعنتها عما تقدم اليها سفلتها ... وارجو الا يطلع ذوو العقول واهل النظر مني

على ايثار هوى ولا تعمد لتمويه » (٢٩) .

اما ثالث هذه الاسباب فربما كانت الطبيعة العربية المجبولة على العشرة والاختلاط . فالعرب في بلاد فارس اختلطوا بالسكان المحليين منذ عصر الفتوحات الاسلامية وامتزجوا بهم وتزوجوا منهم وتلقبوا بالقاب اعجمية نسبة الى القرى والمدن والاقاليم الفارسية . ونشير عرضاً الى ان هذه الالقاب التي تبناها العرب ادت الى اخطاء تاريخية خطيرة خاصة من قبل المستشرقين الذين عـدّوا كل من تلقب بلقب اعجمي اعجمياً وقـد جرّ هذا الخطأ على سبيل المثال لا الحصر الى اعتبار الثورة العباسية ثورة فارسية ! !والى اعتبار غالبية علماء الملّة الاسلامية في العصر العباسي من العجم ! !استناداً الى اللقب ! ! .

ومهما يكن من أمر فإن هذا الامتزاج بين العرب والفرس في بلاد فارس ادى بعد عدة عقود او بعد جيل او جيلين الى موقف توفيقي من كلا الطرفين فقد غدا العرب خاصة المستقرين في بلاد فارس اقل حساسية وتعلقاً بأنسابهم وغدا الفرس يكتبون بلغتهم الفارسية ادباً وتاريخاً لبلادهم وتكونت لديهم كيانات سياسية اعتبرت رمزاً لقيمهم ومعبراً عن تطلعاتهم . والغريب ان عدداً من هذه الكيانات لم يكن فارسياً ولا ايرانيا ولكن اهل فارس تقبلوا حكمها لهم ما دام الحاكم يتقمص « الشخصية الفارسية » ويجعل من نفسه مثلا للقيم الثقافية والاجتماعية الفارسية ومعبراً عن تطلعات الفرس المشروعة وغير المشروعة ! !

على أن المهم من ذلك كله هو فقدان الحركة الشعوبية وانصارها اي حافز للبقاء والاستمرار خلال العصر العباسي .

---

(٢٩) محمد كرد علي ، رسائل البلغاء ، ص ٣٤٤ ، ٣٧٥ . — ومما يدل على تقبل فئة من الفرس للنظرة التوفيقية التي نادى بها ابن قتيبة قول ابن الفقيه الهمداني الجغرافي الفارسي رداً على القول الشائع ببخل اهل خراسان بأن اهم دليل على سخاء اهل خراسان وكرمهم هو سخاء القحاطبة والبرامكة . والقحاطبة عرب والبرامكة فرس مما يدل على تقبل الفرس لفكرة الامتزاج والاختلاط وان الهوية الخراسانية تشمل الفرس والعرب . والمعروف ان هذه الفكرة كانت شائعة بين العرب قبل هذه الفترة بزمن بعيد .